من الأدب الأمريكي

النيابة ضد ايب ناظان الملون

تأليف: اريسكاين كولدويل
ترجمة : بديعة عزيز جنا

كان العم ايب يدرى القمح فى المعلف عندما نزل اليه لوثر نوليك من البيت الكبير الأبيض على التل وأخبره أن يحرم امتعة منزله ويترك المزرعة ، وكانت آذان العم ايب قد أصابها بعض الصمم فلم يسمع فى البداية ما قاله لوثر .

وقال العم ايب « آذانى عادت ترعجنى مرة أخرى . الواقع أنى لا أحسن السمع الآن كما كان عهدى فى الماضى .

ونظر لوثر الى الزنجى الذى كان قد انتصب واقفا قرب باب المعلف لكى يسمع أكثر وضوحا وقال بتجهم « قلت انى أريد أنت وعائلتك ان تحزموا اثاثكم وامتعتكم وكل ماتملكونه وترحلوا من هنا » .

مد العم ايب يده الى باب المعلف لكى يسند نفسه .

وقال « ترحل ؟ » ، ثم نظر فى وجه صاحب الأرض غير مصدق ما سمعه واردف بصوت مرتجف « انت لا تعنى ذلك اليس كذلك ؟ لابد انك تمزح يا مستر لوثر » .

وقال لوثر بتعصب وهو يرتد على عقبيه سائرا بضع خطوات « ان ماسمعته كان صحيحا حتى اذا ادعيت أنك تصف أصم - أريد أن تتركوا المزرعة قبل نهاية الاسبوع . سأعطيك هذا الوقت الكافى اذا لم تقم بمغادرة أى متاعب . وعندما تحرم المتاعب حاذر من أحد أى شىء يخصنى والا أبلغت البوليس » .

وحارت قوى العم ايب وكاد يهوى على الأرض « استدار قليلا ثم رفق بجانب الباب وجلس على أرض المعلف . التفت لوثر ليرى ما الذى يعمله الزنجى .

وقال العم ايب ببطء « حقيقة انى فوق الستين . ولكن ومعى عائلتى نعمل عندك منذ يا مستر لوثر - نحن نعمل بنصف الهمة كأى فرد فى جميع مزرعتك أنت أعلم بهذه الحقيقة . لقد اقمت هنا يا مستر لوثر وعملت عندك وعند أبيك من قبلك لمدة أربعين عاما كاملة - لم أذكر أثناءها شيئا عن الأعصاب التى كانت من حقى مهما كان المحصول الذى أحتيه وفيرا . لم أطلب أبدا الكثير .. بل مجرد الكفاية لاطعامى والقليل من الملابس - هذا كل ما فى الأمر . وقد ربيت ملء بيت من الأطفال ليساعدونى فى العمل .. ولم يسبب أحد منهم أى متاعب لك .. اليس كذلك يا مستر لوثر ؟

وأشاح لوثر بوجهه ثم لوح بيده معبرا عن نفاد صبره وعن رغبته بان تتوقف الرتجي عن مناقشته وهز رأسه وقد بدا على محياه أنه لا يريد أن يستمع لأى شيء يقوله ، العم ايب .

وقال لوثر « كل هذا صحيح .. ولكن على أن أتخلص من نصف مستأجرى المزرعة .. ليس في امكاني الاحتفاظ بثمانية او عشرة عجائز مثلك هنا أكثر من ذلك .. يمكنكم كلكم أن ترحلوا وتبحثوا عن مكان آخر » .

وسأله العم ايب « أليس في بيتك أن تحرث الأرض وأن تزرع وتجني قطنا هذا العام يا مستر لوثر ؟ .. لا زال في امكاني أن أعمل بنفس القدرة والهمة كأى شخص آخر .. ربما ياخذ ذلك مني وقتا أطول في بعض الاحيان .. ولكني اعتمد على كل حال .. ألست أدري هذا القمح الآن لاطعم العمال بنفس الاتفاق كأى شخص آخر ؟

وقال لوثر بعصبية « ليس لدى الوقت لاقف هنا واتناقش معك .. لقد اتخذت قراري .. هذا كل ما في الأمر .. والآن عليك أن تذهب الى المنزل بمجرد انتهائك من اطعام العمال وتبدأ حزم الأشياء التي تملكها كما قلت لك » .

واستدار لوثر على عقبيه وبدأ يسير متجها الى حوش المخزن .. وعندما وصل الى بوابة الحوش التفت الى الوراء ليجد العم ايب في أعقابه .

وقال العم ايب « أين يمكن لي ولعائلتي الانتقال يا مستر لوثر ؟ .. لقد كبر الاولاد ويمكنهم أن يتدبروا امرهم .. ولكننا قد بلغنا أنا وزوجتي من العمر عتيا .. انت تعرف كم هو صعب لرجل ملون مثلي أن يجد منزل يأويه .. وأرضا نعمل فيها بالحصة .. ان بقاءنا هنا لا يكلفك الكثير فانا والاولاد نجني نصف كميات القطن التي نجنيها الآخرون . وآخر مرة أثرت فيها موضوع الحصص كان منذ مدة طويلة في الماضي .. ربما ثلاثون عاما أو أكثر .. اني راض بان اعمل كما هو الحال الآن مقابل بعض النقود العدائي وقليل من الملابس » انت تعرف أن ذلك صحيح يامستر لوثر .. لقد اقمت في كوخي الصغير هناك لمدة أربعين عاما .. انه مأوى الوحيد .. لم يبق لي للزوجتي من العمر الا القليل .. ولا يمكن أن أقوم بعمل آخر باليومية فليس لدى الآن القوة الكافية .. ولكن لايزال في امكاني أن أقوم برزاعة محصول وفير من القطن مثل أى رجل ملون في هذه البلاد .

وفتح لوثر بوابة حوش المخزن وسار خلالها .. هز رأسه ومضى دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات الى بقية حديث العم ايب .

لم يعرف العم ايب ماذا يقول أو يفعل بعد ذلك .. عندما رأى لوثر يسير بعيدا اعترته رعشة هزت كل كيانه .. وتشبث بدعامة البوابة خوفا من الوقوع من هول الصدمة .

وقال يائسا « لن يمكنني الرحيل يا مستر لوثر .. لن يمكنني ذلك .. هذا هو المكان الوحيد الذي يمكنني أن اعيش فيه في هذا العالم .. لا يمكنني الرحيل بأى شكل يا مستر لوثر .

وسار لوثر بعيدا عن الانظار واتجه

صوب ناصية المحرن ولم يعد يسمع العم ايب بعد ذلك .

وفي اليوم التالي بعد الساعة الثانية بعد الظهر بقليل وقفت سيارة نقل أمام منزل العم ايب المتواضع ذي الغرف الثلاث الذي كان يسكن فيه هو وزوجه وأولاده الكبار الثلاثة ، كان العم ايب وزوجه جالسين امام المدفأة يصطليان بنارها .. كانا وحدهما بالمنزل .. وكان العم ايب قد سمع صوت السيارة عندما توقفت أمام المنزل ومع ذلك فقد بقي جالسا .. كان يظنه ابنه الاكبر هنري الذي كثيرا ما كان يسوق احدى سيارات لوثر بوليك .

وبعد بضع دقائق سمع طرقا على الباب .. وقامت زوجه مباشرة وذهبت لترى من الطارق .. كانا رجلين من البيض يقفان عند الرواق عندما فتحت الباب .. ثم يقولا شيئا في البداية ولكنهما نظرا داخل الغرفة ليشاهدا من بداخلها .. ثم دلفا الى الداخل دون ان يبسا بكلمة وسارا الى المدفأة حيث كان العم ايب محييا وماد يديه نحوهما .

وسأله اكبر الرجلين : هل انت ايب لاثان ؟

واجاب وهو في حيرة من أمرهما لانه لم يرهما قبل ذلك نهائيا : نعم يا سيدي انا ايب لاثان .. لماذا تودان معرفة ذلك ؟ ..

واخرج الرجل قرصا معدنيا لامعا من جيبه ليثبت انه من رجال القانون ووضعه في راحة يده أمام أعين العم ايب .

وقال : جئت لاقدم لك هذه الدعوى هذه . وكذلك هذا الامر بالقبض عليك ، الاول بالاخلاء والثاني للتهديد باستعمال القوة لعرض الايذاء الجسماني .

وفتح اعلان الاخلاء وسلمه الى العم ايب .. وهز الرجل رأسه في ذهول شاخصا الى الورقة أولا ثم الى الرجلين من البيض .

وقال الرجل : لقد جئت بصفتي ماثلا للمحكمة لأمرين الاول لاعلانك هذا البيت منك ثم للقبض عليك .

وسأله العم ايب : وماذا بعد .. باخلاء .

ونظر الرجلان حول الغرفة للحظة .. وكانت زوج العم ايب قد جاءت خلف كرسيه ووضعت يديها المرتجفتين على كتفيه .

ـ سنقل اثاثك خارج هذا المنزل ونحمله بعيدا عن املاك لوثر بوليك .. ثم ناخذك بعد ذلك معنا الى سجن المقاطعة .. والآن هيا كلاكما .. اخرجا .

ووقف العم ايب .. وقف هو وزوجته بحائب المدفأة لايعرفان ماذا يفعلان .

وبدأ الرجلان في جمع الاثاث وحمله خارج المنزل .. أحدا الاسرة والمقاعد والمقاعد وكل شيء آخر في الغرف الثلاث فيما عدا فرن المطبخ الذي كان ملكا للوثر بوليك .. وعندما نقلا كل شيء خارجا بدا في تكويمه في سيارة النقل .

وخرج العم ايب مسرعا ورجاهما قائلا : ايها الناس البيض ارجو الا تفعلوا ذلك دقيقة واحدة حتى اذهب وابحث عن مستر لوثر .. سيقوم بوضع الحق في

مصابه .. مستر لوثر هو المالك وصاحب الامر ولن يسمح باحد متاعين هكذا .. ارجوك ياسيدى أن تنتظر قليلا حتى اذهب لرؤيته .

ونظر الرجلان كلاهما للآخر .

وقال النائب وهو يهز رأسه .. ان لوثر بوليك هو الشخص الذى قام بتوقيع هذه الاوراق .. انه هو الذى حصل على اوامر المحكمة هذه ، باخلاء المسكن من أثاثك ثم وضعك فى السجن .. والآن هل يقيدك فى شىء أن تذهب للبحث عنه ؟ .

وقال العم ايب : أوضع فى السجن ؟ ومادا قال عن الداعى لذلك ؟

وقال النائب : لتهديده بالايذاء جسمانيا .. اى تهديده بالقتل .. كضربة بعصا أو قتله بعذارة .

وألقى الرجلان بباقى المتاع فى سيارة النقل ، وطلبا من العم ايب وزوجته الصعود الى الجزء الخلفى من السيارة .. وعندما أحجما عن ذلك دفعهما النائب الى الخلف وجرهما الى أن صعدا الى السيارة .

وبعد خروج السيارة التى كان يقودها النائب من الحارة مارة بمنازل المستأجرين الآخرين ، اتجهت الى الطريق الطويل الذى يمر التلال حتى اراضى لوثر بوليك ثم الى الطريق العام ، ومروا أثناء ذلك بالمنزل الابيض الكبير الذى يسكن فيه لوثر ولكنهم لم يشاهدوه .

واصبح العم ايب قائلا : لم اهدد أبدا بايذاء مستر لوثر .. لم أعمل شيئا كهذا طول حياتى .. لم أقله حتى بكلمة .. مستر لوثر هو صاحب عمل عملت له ولأبيه من قبله منذ أن كنت فى العشرين من عمرى .. جاء البارحة ليقول انه يرغب فى رحيلى عن المزرعة ، كل ماقلته هو انه يجب عليه أن يدعنى باقيا اذ لم يبق لى من العمر الا أقل من القليل .. قلت له انى لاأرغب فى الرحيل هذا كل ماقلته لمستر لوثر .. لم أقل أبدا انى سأحاول قتله .. هذا مايعلمه مستر لوثر تماما كما أعلمه أنا .. أسألا مستر لوثر اذا لم يكن هذا وكانوا قد تركوا مزرعة لوثر متجهين الى الطريق العام المؤدى الى مبنى المحافظة الذى يبعد أحد عشر ميلا .

وقال العم ايب : لقد عشت هنا أكثر من أربعين عاما عملت أثناءها عند مستر لوثر .. لم اهنه طوال هذه المدة بكلمة نابية سواء امامه او فى غيبته .. كل مانهيته لى ولعائلتى هو بعض التموين وقليل من الملابس .. انا وعائلتى نزرع له القطن .. أقوم بذلك منذ كنت فى العشرين من عمرى .. عندما انتقلت الى هنا كنت اعمل لوالده اولا مقابل حصة من المحصول .. وعندما توفى بقيت أعمل كما كنت الى الآن .. مستر لوثر يعلم أننى كنت مثابرا وجادا فى عملى دون أن أتعرض له أبدا .. كل ما كنت أطلبه هو بعض التموين وقليل من الملابس . اسألا مستر لوثر .

وانصت النائب لما كان يقوله العم ايب ولكنه لم يبد كلمة .. كان يشعر بالاسى لحال الرجل المجهز وزوجه ولكن لم يكن فى وسعه أن يفعل شيئا ، لقد حضر لوثر بوليك مبكرا هذا الصباح الى المحكمة وحصل على أوراق الاخلاء والقبض كان عمله هو تسليم الاوراق وتنفيذ أوامر

المحكمة ، ومع ذلك فلم يكن بوسعه سوى الاحساس بالحزن لامر الزنجيين ، لم يكن يعتقد أن من واجب لوثر بوليك أن يطردهما لمجرد تقدم السن بهما .

وعندما وصلوا على مرأى من المدينة ، طلب النائب من السائق أن يتوقف .. واوقف السائق السيارة بجانب الطريق العام .. كان ثمة خمسة عشر أو ثمانية عشر ميلا من منازل الزنوج على جانبي الطريق .

وبعد أن توقفوا بدأ الرجلان الابيضان في تفريغ الاثاث وتكويمه بجانب الطريق وعندما انتهيا من اخراج كل ما بسيارة النقل طلب النائب من روح العم ايب أن تترجل من السيارة ، وبدأ العم ايب هو الآخر في النزول ولكن النائب طلب منه أن يبقى حيث هو ، واندفعت السيارة تاركة روح العم ايب واقفة في حالة ذهول بجانب المتاع .

وسألهما العم ايب وهو يبطر الى زوجه والمتاع عن بعد : ماذا ستفعلان بي الآن ؟

وقال النائب : سأاخذك الى سجن المحافظة وتحبسك احتياطيا على ذمة التحقيق .

وسأله العم ايب : وماذا تفعل زوجي الآن ؟ .

ـ من المحتمل أن يأويها لديه أحد سكان تلك المنازل .

ـ كم من الوقت سيحتفظون بي في السجن ؟

ـ الى أن تقدم قضيتك للمحاكمة .

واستمروا في طريقهم عبر شوارع المدينة المترية ثم حول ميدان المحكمة ، وتوقفوا امام المبنى الحجري بواجهته ذات الفصال الحديدية .

وقال النائب : هيا مع السلامة .

وكان العم ايب قد بلغ الضعف له منتهاه ولكنه تمكن بصعوبة أن يصل الى الباب ، وفتح الباب رجل ابيض آخر ، وطلب منه أن يسير بطول الممشى الى ان يؤمر بالوقوف وقبل ظهيرة يوم السبت بقليل وقف هنري الابن الاكبر للعم ايب أمام مكتب رامزي كلارك المحامي وقبعته في يده .. وستمر المحامي في قضم قلم الرصاص بعض الوقت قبل أن يتحرك بكرسيه المواجه للنافذة المطلة على ميدان المحكمة ويشير لمواجه ابن العم ايب . وقال المحامي متجهما : انا لا اريد القضية .. لااريد أن أمسها .

وحملق الفتى في يأس .. كان ثالث محام يذهب اليه هذا الصباح .. وقد رفض الآخران قبول قضية ايب بتاتا .

وقال رامزي كلارك وهو لايزال على تجهمه : ليس من ورائها أي منفعة مادية لي أحصل على مبلغ منكم أيها الزنوج اذا قبلت هذه القضية .. ثم انه ليس في نيتي أن أكون وكيلا لزنجي في المحكمة بعد الآن .. لقد كان في ذلك خرابا لمحامين أقدر مني .. ليس لي رغبة في أن يطلق على لقب محامي الزنوج .

ونقل هنري ثقل جسمه من قدم الى الاخرى وعض شفتيه ، لم يعرف ماذا يقول .. وقف في وسط الغرفة وهو يحاول التفكير في طريقة يساعد بها أباه .

وقال هنري مؤكدا : لم يقل ابي ابدا

انه سيفعل مستر لوثر .. فقد كان يكن له الاحترام وكان دائما على علاقة طيبة به .. ولم يستطيع أي منا يوجه عام في مضايقته في اي وقت كان .. سيقول الجميع لك ذلك .. كل المستاجرين بمزرعة مستر لوثر سيقولون لك ان ابي لم يتعرض في حياته به ... لم يقل ابدا انه سيحاول ايذاء مستر لوثر باي شكل .

واشار المحامي اليه بالوقوف عن الكلام كان قد سمع كل مايود سماعه .

وقال غاضبا وهو مستـــك ببعض الاوراق وصارخا بها في عنف على مكتبه ،قلت لك انى لن ابحث القضية . لاأريد أن أذهب الى المحكمة واصبح وقتي في الترافع في قضية خاسرة .. ثم انه من المفيد لكم ايها الزنوج ان ياخذ كل منكم دوره في السجن فهذا هو السبيل الى الاصـــلاح .. ومع كل قسيان اذا كان ايب لاثان هدى مستر وليك أو لم يهدده فان ايب لاثان رفض مسارحة المزرعة بعد ان طلب مستر وليك منه ذلك .. اليس كذلك؟ حسنا ان في هذا الكفاية لادانته في المحكمة .. هذا كل ما يود القاضي سماعه . سيرسل الى السجن باسرع من فترة الزعوث .. لن يشغل محام وقته في تحضير قضية يعلم جيدا نهايتها .. اذا ماكان من روائها كسب مادي لاختلف الامر ، ولـكنكم يامعشر الزنوج ليس لديكم فلس تدفعونه اتعابا لي .. لا .. لاأريد القضية .. لن المسها بقضيب طوله عشرة أقدام .

وترك هنري مكتب رامزي كلارك وذهب الى السجن وحصل على حوار لزوبة ابيه لمدة خمس دقائق .

كان العم ايب جالسا على الدكة المثبتة في حائط قفص السجن شاخصا خلال القضبان عندما دخل هنري .. وجاء السجان ووقف خلفه عند باب القفص .

وكان أول سؤال سأله العم ايب هو «هل رأيت محاميا وقلت له انني لم أقل شيئا مثل هذا لمستر لوثر ؟

ونظر هنري الى أبيه ولكن كان من العسير عليه أن يجيب .. وهز رأسه منكسا نظره الى الارض .

وسأله العم ايب .. لقد حاولت .. اليس كذلك ياهنري ؟

واومأ هنري بالايجاب .

ـ ولكن عندما قلت للمحامين انني لم أقل في حياتي شيئا نابيا عن مستر لوثر او عن ابيه من قبله .. الم يقولوا انهم سيساعدونني للخروج من السجن .

وهز هنري رأسه .

ـ ماذا قال المحامون ياهنري عندما ذكرت لهم مدى احترامي لمستر لوثر ؟ وكيف اني كنت مجدا ومخلصا في عملي عنده ذاتني لم أطالبه أبدا بما استحقه من حصة من المحاصيـــل التي اقوم بزراعتها .. الم يقولوا حينئذ انهـــم سيساعدونني ؟

ورفع هنري نظره الى ابيه محركا راسه عاليا لكي يراه من بين القضبان، كان يسلم ريقه عدة مرات في محاولة قبل ان يتمكن من الكلام كلية .

واخيرا قال .. لقد قابلت ثلاثة محامين الى الآن .. وكلهم قالوا انه ليس بوسعهم عمل أي شيء وان علينا ان نترك القضية تاخذ مجراها في المحاكمة .. قالوا انه

ليس هناك مايمكن عمله لان القاضي سيحكم عليك بالسجن على اى حال .

وتوقف لحظة ونكس بصره نحو قدمي ابنه عمر الصبيان .

ـ اذا كنت تود ان اذهب واحاول مرة أخرى البحث عن محام يقبل أن يكون موكله فلا بأس ولو اني اعلم انه لافائدة من ذلك . فانهم لايرغبون ان يعملوا شيئا .

وجلس العم ايب على دكته ونظر الى الارض . لم يكن في مقدوره ان يفهم لماذا لايرغب اى من المحامين في مساعدته .

واخيرا رفع بصره شاخصا الى ولده . كانت عيناه ممتلئتان سريعا بالدموع التي لم يمكنه التحكم فيها .

وسأل : لماذا قال المحامون ان القاضي سيحكم عليّ بالسجن على أي حال ياهنري ؟

ونهض هنري على القدمان بكل قواه مسترجعا بذكراه كل هذه السنين التي كان يرى خلالها اباه وامه وهما يعملان في حقول القطن للوثر بوليك ولايحصلان فيها عن هذا المجهود المضني الا على بعض النقود القليل من الملابس ومنزل صغير يظلهما ولا شيء أكثر من ذلك ، وألح ابوه في السؤال : لماذا قالوا ذلك ياهنري ؟

واخيرا قال هنري : اظن لاننا ملونون واني لااري شيئا آخر غير ذلك .

وجاء السجان خلف هنري ولكزه بعصاه وقال : هيا اسرع . لقد انتهى الوقت ـ الوقت انتهى .

وسار هنري في الردهة بين صفوف الاقفاص تجاه الباب المؤدي الى الشارع ولم ينظر خلفه .